بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إني جاعل في الأرض خليفة

كان الله ولم يكن معه شيء

قبل آدم، قبل الملائكة، قبل السمٰوات والأرض، لنبدأ بالحديث عن الله ﷻ: «**كان الله وحده**».

لا سماء، لا أرض، لا بحار، لا مجرّات، لا كواكب، لا نجوم، لا هواء، لا ماء، لا شيء، كان الله وحده. ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: 1]، نعم يا رب جاء علينا وقت لم نكن شيئاً مذكوراً، «**كان الله وحده**».

جاء وفد اليمن إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، جئناك نتفقه بالدين، وجئنا نسألك عن أول هذا الأمر، أي: بداية هذا الكون، فقال لهم النبيّ ﷺ: «**كان الله ولم يكن معه شيء ولم يكن هناك غيره**»[1]. رواه البخاري.

فأمام كل ما وصلنا إليه من تكنولوجيا نبقى لا شيء. كل هذا

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3191).

obeikandl.com

جديد على الكون، فهل عرفت معنى قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزمر: 62]. فهل تشعر الآن معنى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر: 67].

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: صعد رسول الله ﷺ مرة إلى المنبر، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهو يخطب بأعلى صوته: «**يمجد الله تعالى نفسه فيقول: أنا القوي أنا العزيز، أنا الجبار، أنا الأول، أنا الآخر، أنا المبدىء أنا المعيد**»[1]. ويقول عبد الله بن عمر ﷺ: فرأيت رسول الله ﷺ يصدع بأسماء الله تعالى حتى رأيت المنبر يرجف برسول الله ﷺ. ـ الخشب خَشِعَ، الخشب أحس بجلال الله تبارك وتعالى ـ حتى قلتُ: النبيّ سيسقط من على المنبر، فجئت تحت المنبر خشية أن يسقط النبيّ ﷺ.

فنحن أين كنا؟ عدم، الكون أين كان؟ عدم. كان الله ولم يكن معه شيء. والكون كله الذي نراه الآن كان في حالة سكون، حتى نُفِخَ في سيدنا آدم، وبدأت الحياة.

بدأ العمل، بدأ آدم يزرع وينتج، وسينتهي الكون بماذا؟ بنفخة أيضاً.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في (الحديث: 2/ 72)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (7/ 105).

سبحان الله! بدأ الكون بنفخة في آدم وسينتهي بنفخة أيضاً: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: 68].

وينادي الله تبارك وتعالى: من بقي؟ فيقول: بقي جبريل وميكائيل وعبدُك ملك الموت يا رب. فيأمر بروح ميكائيل فتُقبَض، ويأمر بروح جبريل فتُقبَض، فيقول: **«من بقي؟»**، فيقول: عبدك يا رب، فيقول: **«اقبض روحك»**. فينادي الله تبارك وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، فلا يجيب أحد لأنه لا يوجد أحد. فيجيب الله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، فهل عرفت الآن معنى اسم الله الأول والآخر.

انظر حديث النبيّ ﷺ: **«اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»**[1].

فهل عرفت معنى المبدىء المعيد؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]. يبدأ خلق كل شيء، الهواء، الماء، الرياح، الرمال، الكواكب، النجوم، المحيطات.

هذا اسم الله الواحد الخالق، كل هذا وآدم لم يُخلَق بعد، أكلّ هذه من أجلنا يا رب؟

ويقول النبيّ ﷺ: **«ما السماء الأولى في السماء الثانية إلا كحبة**

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 1/ 524).

في صحراء، وما الثانية في الثالثة إلا كحبة في صحراء، وما الثالثة في الرابعة إلا كحبة في صحراء، وما السابعة في الكرسي إلا كحبة في صحراء ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما الكرسي في العرش إلا كحبة في صحراء، وما العرش في كف الرحمٰن إلا كحبة في صحراء»[1].

فكم جهدك أنت حتى تقول له: لا، لن أطيعك.

ادخل على الله بمبدأ الطاعة والتذلل، يا رب سوف أطيعك ولن أعصيك أبداً، انس قيمة نفسك، انظر الى الله ﷻ فقط، ولا ترى أحداً سواه.

قدّر فيها أقواتها

وقبل خلق آدم قسَّم الله الأرزاق على العباد. وقدّر الأقوات في الأرض. يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 9، 10].

لكن تذكّر ليس معنى هذا أن لا نعمل، بل هي دعوةٌ للعمل، فلا تغضب لأنك قليل الرزق؛ لأن الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: 10].

وتَذَكّر أن العبرة في البركة، وليست العبرة في الأرزاق، فقد يؤتيك مالاً كثيراً بغير بركة، وقد يؤتيك مالًا قليلًا كله بركة، من

(1) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (الحديث: 3/ 298).

أجل ذلك وضعت آية البركة قبل الأقوات. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12]، توضع القوانين في الأرض من أجلك يابن آدم.

ويأمر الله الكون بالخضوع قبل خلق آدم: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

اخضع لله هكذا يا عبد! قل له: ليس لي أحدٌ سواك. ويبدأ الكون كله بتسبيحه سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 18].

من ملايين السنين والكون خاضع لله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: 40].

فلنتعلم منذ اليوم عبادة رائعة جداً، عبادة الخضوع لله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، والرسول ﷺ كان يدعو الله: «**اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك**»[1] تعلّم الخضوع من سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، وقال سبحانه وتعالى عن أهل بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123]، أي عندما أحسوا واستشعروا بمعنى الخضوع لله عز وجل، نَصَرهم.

خُلِق الكون فخضع وسجد لله تعالى، وكل ذلك تمهيداً

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 391)، و(الحديث: 1/ 452).

لخلقك... تمهيداً ليبين لك كيف تعبده وتلجأ إليه.

فالجأ الى الله تجده دائماً أمامك ويكن لك خير ناصر.

الكون أصبح مهيأً لخلق آدم وعمارة الأرض

أحبائي لقد خلق الله ﷻ هذا الكون، ومهّده لنعيش فيه بسلام، لا ينقصنا سوى السعي وراء الرزق الذي أعدَّه الله لنا، فالكون أصبح الآن مهيأ لخلق آدم ولعمارة الأرض.

وقبل هذا كله، «**كان الله ولم يكن معه شيء**»[1]. فخلِقت الجبال والبحار والهواء والمجرات وكلٌ يهيىء الحياة لآدم ونسله، وكُتب كذلك الخضوع على الأرض والسمٰوات لله ﷻ بكل ما فيهما ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، ووضعت القوانين العلمية كلها من أجل هذا الكون وساكنه من بعده. يبدأ التسبيح والإجلال لله تبارك وتعالى.

حاول أن تتخيل أنك كنت موجوداً وقتئذٍ، ترفع رأسك فترى السماء أصبحت فوقك وفجأة ترى الجبال قد تَكَوّنَت، وكذلك البحار، كل شيء، وتستغرب أن الكون كله يسبّح لله ﷻ، والعجب أنك أنت لا تُسبح له سبحانه وتعالى.

كل هذا وآدم لم يُخلق بعد.

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3191)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 3)، وأخرجه **الطبراني** في «المعجم الكبير» (الحديث: 18/ 205).

خلق الأمور المعنوية

تبقى أشياء معنوية ستُهيأ قبل خلق آدم أيضاً، فما هي هذه الأشياء؟

١ ــ الرَّحم:

قالت الرحم عندما تعلقت بالعرش: « **يا رب، هذا مقام المستجير بك من القطيعة**». فانتبهوا إلى صلة الأرحام، يا إخواني. «**فقال الله ﷻ: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطَع من قطعك؟ فقالت: بلى رضيت يا رب، قال: فلكِ ذلك**»، ثم قرأ النبيّ ﷺ: «﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾» [محمد: 22]، فتخيل تلك الصلة بين الفساد في الأرض وتقطيع الأرحام! ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: 23].

ويقول النبيّ ﷺ: «**إن للرحم لساناً تحت العرش يوم القيامة تقول: يا رب، قُطِعت، يا رب: ظُلِمت، يا رب: أوذِيت، فيقول الله تبارك وتعالى: أما ترضين أن أصل من وصَلك وأن أقطع من قطعك؟ فتقول: بلى يا رب، فيقول: لكِ ذلك**»[1].

تخيل، الكلام ذاته الذي قيل لها منذ بداية الخلق، سيقال لها عند انتهاء الخلق يوم القيامة.

هل تسمع هذا الكلام؟

(1) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (الحديث: 6/ 64).

٢ ــ باب التوبة:

خلق الله قبل آدم باباً يقال له: باب التوبة. وقد أخبر عنه رسول الله ﷺ في حديثه: «**لما خلق الله السمٰوات والأرض خلق باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً تركه مفتوحاً، خلقه من جهة المغرب**»، فقال النبيّ ﷺ: «**أتدرون ما الباب؟**»، فقالوا: لا يا رسول الله، قال: «**الباب هو التوبة**»[1].

تصور، عرضه سبعين سنة، وماذا فعلت أنت حتى لا يسعك هذا الباب؟!

ولماذا من جهة المغرب؟ لأن الشمس تطلع من المشرق، فحين تطلع الشمس من المغرب يُسد هذا الباب ويحجب عن المتأخرين في التوبة، ألم يقشعر بدنك لمثل هذا الكلام بعد؟

تخيل، صلة الرحم، التوبة، وأنت لم تخلَق بعد. تب إلى الله من كل الذنوب تب... تب إلى الله.

٣ ــ الرحمة:

لما خلق الله السمٰوات الأرض، خلق شيئاً أكبر منهما بمئة مرة، خلق الرحمة، وجعل كل رحمة مثل ما بين السماء والأرض، فهي مئة رحمة.

الله... كم أنت كريم يا ربّ، فهل عرفت معنى اسم الله الغفّار، الرحمٰن؟ صاحب الأسماء الحسنى كلها.

(1) ذكره الطبري في «تاريخه» (1/ 73).

وبعد أن خلق الله الكون كله، كتب كتاباً وهو عنده فوق العرش، كُتب فيه: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1]. سبحانه وتعالى، الحمد لله أننا عبيد لربنا. الحمد لله الذي منَّ علينا بباب التوبة.

أمور حسية وأخرى معنوية، كل ذلك هيأه الله لهذا المخلوق العظيم، آدم، ألهذه الدرجة أنت غالٍ وعزيز على الله؟ خلق الله الشمس والهواء والجبال والماء، كل ذلك من أجلك.

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3194)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6903).

obeikandl.com